ليلة قتل جميلة

ليلة قتل جميلة

مجموعة قصصية

إيمـــان صـــلاح

ليلة قتل جميلة

اسم الكاتبة: إيمان صلاح
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: مروة صلاح
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى
رقم الإيداع: 2018 / 23224

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

جميع الحقوق محفوظة

الإهـــــداء

إلى ابني " إياد "

أمتلك لك حبَّ العالم، وأرجو اللهَ أن تصادف في حياتك قدرًا جميلًا!

من أجل عشاق العُزْلَة، الذين لم يجدوا سوى الوَحْدة ملجأ، كل القلوب أوصدتْ أبوابها في وجوههم...

كن أنت ملجأ ذاتك.

إلى القاطنين في قلوبنا دون رحيل.

ما بين خريفٍ مضى وشتاءٍ آتٍ؛

حكايات من الحب

متطايرة وسط زَوْبَعَة الأحداث.

الكاتبة

ليلة قتل جميلة

كان الليلُ قاتمًا في ليلة احتضنها الكونُ بأذرعِ واهنة، السماء مليئة بالسحب المتفرقة والقمر في كبدها مذبوحٌ يشوب شعاعَه حُمرةٌ في ليلة دامية قُتل فيها القمرعلى مسمع، من كافة الأفلاك، اختفت النجوم فَزَعًا وراح الكون يَنْتَحِبُ في صمتٍ رهيبٍ امتد مداه لمنزل راغب بإحدى أحياء القاهرة الراقية.

في تلك العَتَمَة راح يُقلّب نورالأباجورة؛ فتارة يُشعلها وتارة يُطفئها وهو في تيه فقد ضاع منه هذا الشعورالمسمّى حب إثر زَوْبَعة الأحداث، فغادره دونما عودة لكنه ظل محمومًا به، وكأن جميلة طعنته بخنجرالفراق الأبدي المسموم.

كانت جميلة تحمل من اسمها النصيب الأكبر، عيناها الواسعة وبَشَرَتها القمحية وشعرها الأسود الطويل بلمعته الطاغية ينسدل على ظهرها في تمايل، يتموّج كالبحربنعومةٍ ظاهرة لمن يراها، خصرها النحيل وقامتها الطويلة تجعل حركاتها رشيقة ومتناغمة.

كان على يقين تام أنها لا تحبه بل تستغل ثروته التي ورثها عن أبيه كي تُنفق على أختها الصغرى سهام وأمها بعدما تُوفي والدها بذبحةٍ صدرية؛ لخسارة أسهم شركته في البورصة. فلم يتوقّع هذا الانهيارالذي أصاب شركته فجأةً ليسقط وتنهار معه أحلام جميلة الدائمة تجاه المال والارتياح المادي الذي اعتادت عليه.

أثناء جموح ذاكرته دون قيد، ارتفع صوت رنّة هاتفه الجوال ليرى ضوء الشاشة وسط ظلمته التي فضّلها، يُعلن عن اسم والدته.

ردّ علي الهاتف ليخرج صوته بهدوء شديد:

- أهلا يا أمي.
- اتصلت بك أكثرمن مرة ولم تُجبني هل حدث شيء لك؟
- هل حدث شيء بكِ كي تتصلين عدة مرات؟
- أعتقد أنكِ مُنشغلةٌ بعريسك الجديد.
- لا أعرف إلى متى ستتحدث إلى أمك بأسلوب التهكم هذا؟
- ولا أعرف إلى أين سأذهب وإلى أين سينتهي بي الحال؟
- عن ماذا تتحدث؟ على أي حال هاتفتك حتى أطمئن عليك، لأنني سأمكث في باريس مع زوجي طيلة إجازته الصيفية ولا أستطيع المجيء.

- دائمًا تنتابك الحالة العصبية وتُنهي الحديث بشيء تعتقدين أنه فاجعة بالنسبة لي.
- اسمعني جيدًا يا راغب؛ أعلم أنك في حالة مزاجية سيئة بسبب زواجي الثاني بعد موت والدك، ولكنك تعلم أيضًا كيف عذبني طيلة زواجنا حتى انتقل إلى مثواه الأخير.

بعد صمت عدة دقائق، أحسّ أنه لا يرتجي إطالة الحديث معها الليلة، أو أن يُشعل فتيل الذكريات بينهما كما ينتهي الحال في كل مكالمة هاتفية، ولكن النار لا تهدأ في قلبه وبراكن الذكريات يغلي في عقله باستمرار فقال لها: افعلي ما تُريدين. وأغلق الهاتف.

شعرت أمه بعدم الارتياح لحديثه اليوم، وكأن هناك شيئًا لا يريد البوح به؛ هل تركته جميلة مرة أخرى أو أنه تذكر أباه وحزن لارتباطها الثاني، ولكنها تعلم أنه لا يعير اهتمامًا لزواجها؛ فمن ذي قبل لم يتكلم وفضّل الصمت ولم يبدِ ضِيقًا.

أمسك بالهاتف وهو جالس على الأريكة، وفي يده اليمنى السيجارة التي كلما انتهت يُشعل تاليةً حتى فرغت العلبة، شعر أنه يريد الانتهاء مع كل سيجارة أو أن يصبح عدمًا، وحدّث نفسَه:

أين أنت يا جميلة الآن؟ أحقًا ستتزوجين من نبيل ذاك؟! لم أتخيل يومًا أن يلمسكِ أحدٌ غيري.. أن يضمكِ إليه.. ويقترب من

أنفاسك، حاول الاتصال بها مرة أخرى ولكن الرقم مغلقٌ منذ شهر مضى.. قال لنفسه: لا بد أنها استبدلت الرقم بآخر، ولا بد أن أصلَ إليها أينما كانت، يكفي أنها انتقلت إلى بيت جديد لا أعرفه حتى الآن.

شعر بأنه يريد البكاء.. هو الذي لا ملجأ له في هذه الدنيا، لم يستشعر يومًا الحب من أحد، لا والده الذي كان ينهره دائمًا بحجة التربية ولا أمه التي عاشت حياتها دونه، حتى جميلة الكذبة الكبرى في حياته لطالما أقنع ذاته أنها تحبه ولا تريد أمواله ولكن الحقيقة مع الوقت انكشفت وأصبحت ساطعة كضوء النهار.

لا يدري لِمَ يحب العَتَمَة: هل لأنها تستر أوجاعه وتحجب أفكاره المميتة؟!

لا أريد أن أكون هنا طالما ما من أحد يسمعني!

دونّ هذه الجملة بدفتر أعطاه له الطبيب في إحدى الجلسات النفسية لعلاج الاكتئاب، عندما أقنعه عمه في يوم أن يذهب للعلاج النفسي؛ فكلما أتى ليزوره يجده في حالة مزاجية سيئة لا يستطيع السيطرة عليها، فجسده النحيل يوحي بذلك وشراب الخمر الذي أصبح لا يُفارقه كعادة جديدة.

- يجب عليك أن تذهب إلى الطبيب النفسي، حالتك تدل على اضطراب شديد في سلوكك!
- ولِمَ الطبيب.. هل بدا عليَّ أعراض الجنون؟!
- لا، بل صامت أغلب الوقت وجسدك يختفي رويدا، ومنذ متى وأنت تشرب الخمر بهذه الكثرة؟
- منذ الآن.. أعلم أنك تشعر ببؤس شديد نال منك، تشعر بأنك يتيم ولكن...

قطع حديثه قائلا:

- ولكن... ولكن لا يهم، أريد أن أغادر!
- تقصد تسافر، بالفعل أنت تحتاج إلى رحلة خارج مصر لتهدأ قليلا.

قال وقد أفقدته الخمرة جزءا من عقله:

- لا، لا، أنت لم تفهمني بعد، لقد تركتني جميلة ولا أعلم مكانها وأقسم أنني سأجدها قبل أن تتزوج هي الأخرى.
- حسنا ولكنني قلت لك من قبل: أي امرأة جميلة تريد المال ليس إلا... سأتركك الآن على أن أعود لك مرة أخرى، وتكون في حال أفضل.

كل هذا يدور بِخَلَدِه، يمر في تلك الليلة أمامه كفيلم سخيف شاهده أكثر من مرة حتى ملّ.

أثناء جلسات الطبيب المتتالية، وجد رُوحه تقاوم الاكتئاب الشديد وأن هناك نورًا يتسلل إلى قلبه المظلم، كان يكتب في دفتر الطبيب ما لم يشأ قوله، وأحيانًا يرسم أشياء ليس لها معنى.. من ضمن كلماته الكثيرة:

سأرحل...

أين أنتِ يا جميلة؟ سأعثر عليك وحينها ستشعرين بالندم...

لا أريد أن أكون...

كان يرسم دوائر مغلقة على ذاتها، فكلما فتح صفحة جديدة مع الحياة تُعيده لنفس البداية إلى حد أنه اختنق.

سأله الطبيب:

- تعتقد لماذا جئت إلى الحياة؟
- لا أعرف ربما رحلة قصيرة... من يعلم فالموت قريب!
- لماذا دائمًا تفكر في الموت؟
- لأنه الحقيقة، الموت ليس بقبيح بل الحياة هي القبيحة!
- من هي جميلة؟ هل لي أن أسألك؟
- رائعة ولكنها كاذبة أحيانا أشعر أنها أمي الثانية.

أكمل حديثه:

- إنني لطالما شَعُرْتُ بالوَحْدة، وقشعريرة الفراق، فلم يكن لي إخوة وذهبت أمي بكامل إرادتها بعدما ذهب أبي دون إرادة، أما عن أصدقائي فكلهم لا يرتقون لمعنى الصداقة، فاعتقدوا دائمًا أنني لست بحاجة إلى الصحبة طالما أملك مالا، ولكن هم لايعرفون أن الأموال لا تجلب السعادة بل زادت من وحدتي، وأثناء استماع الطبيب بدقة شديدة نظر راغب له يستطرد حديثه، وحدها هي من استطاعت أن تنوّر ظلمتي الداخلية، لكن الواقع سيئٌ دائمًا ولا نستطيع أن نتوقعه، فقد كانت تعتبرني البنك الذي وقعت عليه بينما أنا اعتبرها جميلتي الوحيدة وزهرتي التي تفوح أرجائي عطرا، كنت أكره جميع النساء وأدرك أنه لا فائدة منهن سوى المضاجع، فأفرغ شهوتي فيهن فقط لتذهب واحدة وأخرى، ولكن جميلة هي عشقي الذي احتل أطرافي وسكن عقلي قبل قلبي، ولكنني أعدك يا طبيبي أنني سأجدها في أقرب وقت.. لن أتركها لنبيل.
- من نبيل إذن؟
- يريد أن يأخذها مني، تركتني لأجله، بالتأكيد تُحبه دوني ولكني لا أعلم لماذا، وهو لم يقدم لها شيئا.. ربما المال معي والحب معه ثم

تنهد طويلا ليخبره أنهما يرتّبان للزواج قريبا بالتأكيد، وأنه سيعثرعليها ويتوسل أمامها ليقدم قرابين العشق لها وينحني تحت قدمها باكيا.

تيقن الطبيب أن حالة راغب اكتئاب في مرحلته العظمى، فمن الممكن أن يفكر في الانتحار بل أن يحاول.

لطالما فكر في الانتحار عندما جاءته تلك النوبات التي كادت أن تُفجّر رأسَه. هذه الهلاوس السمعية بأن ما من أحد يحبه، الجميع يكذب والجميع خائن، ولكنه لم يخبر أحدًا بأن تلك الأفكار تراوده حتى الطبيب النفسي، لكن الطبيب أدرك دون أن يبوحَ له راغب، الليلة موعده مع جِلْسَةٍ نفسية أخرى لكنه أبى أن يذهب، حتى أن الطبيب هاتفه أكثر من مرة دون ردّ منه.

الساعة أصبحت الثامنة من مساء هذا اليوم الذي طال ليلة وكَثُرَت الذكريات به، بالكاد تذهب ساعة وراء الأخرى، أمسك بالهاتف مرة ثانية ليتحدث إلى أحد أقارب جميلة من بعيد كان يحفظ رقمه، وحاول التواصل معه من قبل دون جدوى لكنه قرر اليوم أن يعثرَعليها لأنه قال في قرارة نفسه: سأجدك الليلة يا جميلة، اليوم سنلتقي.

اتصل راغب بقريب جميلة علّه يرد اليوم وشاء القدر أن يتحدث إليه، كانت جميلة لم تخبره أنها تركت راغب بل لم يجئ بذهنها أنه سيصل إليها عن طريقه.

وعندما سألأ عنها قال له:

- غادرت الحي السكني الذي تقطنه، وراحت بعائلتها إلى حي آخر أكثر هدوءًا، كما أنها وجدت عملا بشركة كبيرة ثم عندما شعر بأن أسئلته بها شيء من الغرابة، صمت قليلًا قائلا:

ولكنك كيف لا تعلم عنها أي شيء؟

شعر بالاضطراب مبررا موقفه بقوله:

حدثت مشكلة صغيرة بيننا جعلتها لا تقول لي أين ذهبت، ولكنني أريد أن أصلح الموقف لذلك أطلب منك العنوان.

راح يدون العنوان في ورقة صغيرة بشكل سريع وبارتياح داخلي رهيب، كأنه امتلك الكرة الأرضية جميعها في كفه، عادت الهلاوس وازدادت فجأة وكأن أشخاصًا كثيرة تهمس في أذنه، أغلق أذنيه بيديه وأغمض عينيه لدقائق، ثم نهض في وهلة وقبض بيده على الورقة التي كتب بها العنوان حتى اعتصرها دون رحمة، انطلق من عينيه

شرارة وكأن غضب العالم تجمّع في هذه الأحداق، قبل أن يغادر منزله أخد مفكرة صغيرة وضعها في جيب بنطاله وذهب.

****

نسمات هواء رقيقة تعبث بالستائر المعلقة أمام نافذة غرفتها التي تطل على الشارع مباشرة، رائحة عطرها تمتزج بتلك النسمات، المنزل هادئٌ كهدوء المنطقة حولها، كانت تقطن في الطابق الأول بهذا الحي التي حاربت كي تبتاع فيه منزلا، ينبعث من البيت موسيقى بيانو هادئة لشوبان.

دخلت سهام غرفتها لتُخفض من صوت الموسيقى حتى يتسنّى لها الحديث:

- البيت مريح للغاية يا جميلة ولكن سعره غالٍ، أتدرين: يشبه بيتنا القديم فقد كان أبي يعشق ترتيب المنزل بهذا الشكل الحديث أكثر من الكلاسيك!
- أعلم ذلك لأنني مثل أبي.
- ولكنني خائفة ياعزيزتي أن يأتي راغب ويلاحقنا في أي وقت.

- لا أعتقد، هو يشعر أنه يحبني ولكنني لا أشعر بذلك، أعترف لكِ بشيء: كنت أخاف منه كثيرًا وهو يطوّقني بذراعيه فقد كان مريبًا.
- ولكنه من الممكن أن ينتقم منك لأنك تركتِه وحصلتِ منه على بعض من الأموال التي ساهمت في اقتناء المنزل.
- كان هذا الثمن الذي أخذته مقابل أن يشعر بالحب لبضعة أيام، وحين شعرت بالخوف منه واستقرت أموري ابتعدت عنه فورا.
- حسنا، سأتركك حتى تستريحي من بعد يوم العمل الشاق وأذهب للنزهة مع صديقتي.
- وأين أمي؟ هي الأخرى لا أرها.
- ذهبت لخالتك وستأتي في غضون ساعة.
- لا تتأخري مع صديقتك فالحي هادئ للغاية والساعة اقتربت من التاسعة ليلا.
- لا تقلقي، عزيزتي.

وصل إلى منزلها عندما أخذ أخر نفسٍ من سيجارته، وألقى بها إلى الأرض ليدهسها في عنف شديد بقدمه، على الجهة الأخرى، نظر أمامه ليجد منزلها، فأمعن النظر في النافذة لربما يراها، بالفعل أطلّتْ وهي تعبث في شعرها، ترتدي فستانًا قُرْمزيا، فابتسم واجتاح في نفسه الرضا، فيراها فاتنة، يافعة القلب، رقيقة مثل ورقة ورد

الأُقْحُوَان، ولكنها كاذبة أوهَمَته بالحب الأبدي ثم فضّلت الفراق الأبدي.

انتفضت حين سمعت جَرْسَ الباب، واعتقدت أنها أمها لأنها لا تمتلك مفتاحًا للمنزل بعد، عندما فتحت الباب تطلّعت إليه في خوفٍ شديد وحاولت أن تُغلق الباب بسرعة فائقة، ولكنه بكل ما أوتي من عنف حال بينها وبين ذلك، ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تتنهد قائلة:

- راغب... كيف عرفت مكاني؟

عاد لهدوئه ثانية:

- لا يهم، المهم أنك أمامي... أين هو إذن؟
- من هو؟
- نبيل.
- عن أي نبيل تتحدث؟
- ستتزوجين منه بالفعل أم تم الزواج؟

حاولَتْ أن تُهدئ من ثورتهِ لتحتويه وتواجهه بالحقيقة:

- راغب، نبيل مجرد صديق ليس إلا، وأنا لم أتزوج يبدو أنك تتوهم مثل كل مرة.

- أنتِ كاذبة وخائنة.
- أنا أصبحت مرعوبة من ما تقوله.

تقدّم نحوها بينما هي ترتعد من الخوف، وضع كفه على وجنتها الناعمة بشكل هادئ ثم أمسك برأسها بقوة جعلتها ترتجف أكثر!

- راغب أنت لا تريد فكرة التصديق بأنك مريض نفسي، وأنني حاولت أن أقنعك بالعلاج، أنت تتوهم كثيرًا أشياء لم تحدث، وتعرف أنني لم أحبك ولكنك طلبت مني أن أمنحك الحب مقابل أن تساعدني لكي أعين عائلتي بعد الإفلاس، ولكني وجدتك مريبا للغاية تتحدث إلى نفسك وكأنك ترى أو تسمع أحدا؛ لذلك قررت الفرار.

لم ينتبه لكلامها، جذبها نحوه بقسوة.. حاولت هي الأخرى أن تدفعه فوقع على الأرض، راحت تركض بعيدًا عنه، نهض وراءها مسرعًا حتى أمسكها وأحكم قبضته على رأسها ليدفعها نحو الحائط أكثر من مرة حتى سالت الدماء وغابت عن الوعي، شعرأنه ارتكب شيئًا غريبًا عندما استفاق لحظة ممّا به، أمسك بيدها يحاول أن يستجدي نبضها ولكن بلا فائدة فقد أزهق روحها في غفلة.

جلس بجانبها يبكي بشدة وانهالت دموعه واختلطت بالدماء في يده، ثم نهض مسرعًا وتركها ليعود إلى منزله.

الساعة الثانية عشرة مساء يجلس في حجرة المكتب الخاصة بوالده ثم تقدم ليفتح درج المكتب ويلتقط مسدسًا كان يرقد في تلك العَتَمَة منذ سنين، حرك المسدس نحو رأسه حتى اقترب للغاية وأصبح ملتصقًا بمخه، كان المسدس به طلقة واحدة يعلم بها، ضغط على الزناد فاستقرت في رأسه.

عندما جاءت الشرطة بعد وقعة قتل جميلة وجد الشرطي مفكرة راغب مكتوبًا بأوراقها تلك الكلمات:

"وحيدون كسماء خالية من النجوم ليلا"

"كأرض لم تنبت سنابل منذ أبد"

"كقدر مبتور ولن يُكمل مسيرته"!

مشاقّة الحب

عزيزي القابع في الجهة اليسرى من جسدي أنت قدري الأوحد والوحيد، أعلم أن صغر عمري سيجعلك تفكر ألف مرة في الحب، فأنت كبير ليس في سنك وحسب بل في عقلك أيضًا، تكبرني بعشرة أعوام لذلك لم يكن يومًا بخاطرك أن هذه الصغيرة تُحبك.

أنا لا أكتب كل هذا لكي أعترف لك بالحب المخبوء، بل لأنكش في قبر الذكرى المرعب وأجلس بجانب هيكل الحب العظمي مرتعدة.

الطريق للوصول إليك موحش، أشعر أنني أشبه "سيزيف" في أسطورته فكلما اعتقدت أنني وصلت إليك أعود مرة أخرى إلى بادئة الطريق الشاق!

حاولت مرارًا أن ألفت نظرك لتلك الأنثى المختبئة وراء الطفولة، لكنك على ما يبدو لم تقتنع، ما زلت في ذاكرتك تلك الصغيرة في عقدها الثاني من العمر، كنت أعرف بالسابق أنك تريد الزواج من امرأة تقترب من عمرك أو ربما في نفسه، لأنك بُحْتَ لي بذلك عندما كنت تذاكر معي مادة الكيمياء في الثانوية العامة فقد سألتك آنذاك:

هل من الممكن أن تتزوج من فتاة أصغر منك؟

لم تأخذ وقتا في الرد فقد قُلت بسرعة:

لا بالطبع، أريد فتاة تقربني سنا حتى تصل إلى عقلي، أنا من الصعب أن تفهمني حواء.

عقدت حاجبي بينما أنت منهمك في الدرس،

ثم أكملت حديثي غير مهتمة بالدرس متسائلة:

هل ثمة عداء بينك وبين حواء حتى لا تفهمك؟

- لا، حواء هي كل شيء في هذه الحياة، هي الأساس، أنا لم أقل ذلك

فقط قلت: أريد أن تفهم شخصيتي!

اختلج بعقلي الكثير وقتها، شعرت أنني تافهة لذلك لا يُفكر في!

كنت أشعر بتلك السعادة تغمرني كلما تأتي إلى المنزل كي تصب معي أفكارك في دروس الكيمياء خاصة، وبقية الدروس عامة، لأنك معروف في العائلة بتميزك ومهاراتك العلمية، أعلم أن ثمة قرابة بيننا بعيدة وأن أخي وأبي هم من تحدثوا إليك، حتى تأتي يوم الخميس لتساعدني في الثانوية، لكنني لم أشعر قط بأنك قريب فحسب لم أشعر بتلك الأخوة المزعومة من الجميع.

لطالما اختلست تلك اللحظات القليلة أثناء الدروس كي أُطلعك على ما كتبت في غيابك من خواطر لأعرف رأيك، فكم أحببت يوم الخميس وكم أحبك، لمعة عيني تشي بذلك.

من أعلى قمم الفراق سقط قلبي أحدث صوتًا لا مثيل له، هائل كهول يوم البعث، فأدركت حينها أنك سمعت صوته ولكنك لم تفعل، أناشيد الحب كثيرة ليتني حفظت واحدة على الأقل كي أنشدها لك عندما أراك ولكنني في كل مرة أصمت ولا أتكلم لم يكن بوسعي شيء غير أنني أحتضن عينيك بنظرة.

قلت لي بالسابق: أكتبِ كل الأشياء التي تجول بخاطرك، حتى تستقر وتجد لها مكانًا بين طيات الأوراق، حينها فقط ستصبحين كاتبة مشهورة.

قلتُ لك بابتسامة هادئة: لا أريد الشهرة.

قلت باستغراب: لماذا؟!

لم أجب، آثرت الصمت لأن الإجابة في وجداني هي أنني أريدك أنت فقط، لا شيء آخر يستحوذ على قلبي!

ومنذ ذلك الوقت وأنا أحاول أكتب، ولكن جلّ المحاولات باءت بالفشل؛ في كل مرة أعجز عن التعبير عن الكتابة مثلما أعجز عن الاعتراف أمامك بالحب، أعلم أنك مولعٌ بالقصص والأدب والشعر؛

لذلك حاولت التقرب منك وأن أصنع من ذاتي كاتبة لربما تقرأ لي ذات يوم، فتبوح كلماتي بالسر الدفين.

كتبت تلك القصة القليلة السطور وذهبت بها إليك حتى أعرف رأيك، أتذكر جيدا ماذا تحدث حينها؟

أعتقد أن الكتابة ليست بالعمل السهل كما يتصورها البعض!

اندهشت من حديثك، وبدت على ملامحي الغضب لأنني اعتقدت أنك تريد أن تبعث رسالة لي من وراء حديثك وهو أنني لا أجيد الكتابة..

علقت على حديثك وأنا أهز رأسي !

- تقصد أنني لا أعرف شيئًا في فن الكتابة؟
- أقصد أنكِ تحتاجين الاطّلاع والقراءة أكثر وهذا لا يتسنى لكِ حتى تنتهي من الثانوية.

تنهدت قائلة: سأحاول فعل ذلك!

وها أنا قد تخرجت، فرحت بي أكثر من فرحتك لذاتك بالنجاح كنت تشد من أزري، ساعدتني في كتابة الرغبات إلى الجامعة وبالفعل دخلت كلية العلوم وأصبحت بجانبي، إلى أن جاءت فاجعة قلبي، وأنا في السنة الثانية بالكلية عندما علمت من أمي أنك تفكر بالزواج من زميلتك في العمل.

أحسست وأمي تتكلم بأن الحياة تتوقف وأن العالم سينتهي عما قريب بل تملكني هذا الشعور البائس بالوحدة والصقيع، مؤلم هو التفكير بانتزاعك من قلبي عنوة، ستأخذ قطعة منه معك وأنا أنزعك لأنك ملتصق به كثيرًا إلى حد اقتناعي بأنني أنبض بك.

جُلُّ ما يدور برأسي هو أنني كيف أتحمل عبء ذهابك المباغت من حياتي، فقد كانت أيامي كلها تتلخّص في نهاية الأسبوع يوم لقائك، قلبي يدقّ بعنف يهز أنحاء جسدي، كأن الرُّوح تنهار فمثل هذا الحديث أشبه بالرعد الصاعق في شتاء حزين.

الشرود هي السمة الأساسية التي تغلب عليَ وأنا في الجامعة أو أي مكان آخر، يتحدث دكتور وآخر أثناء المحاضرات وأنا لا أفهم شيئا، حتى أنني لم أُذاكر فكيف أتذكر أحدًا غيرك وكانت الصاعقة الثانية سقوطي في نفس العام بالكلية، فلم يكن بوسعي سوى إعادة السنة مرة أخرى.

سمعتَ بذلك وأنت تجهز لزواجك فبادرت بالاتصال بي كي تفهم لماذا حدث هذا، لم أتكلم، حاولت أن أشرح لك ما حلّ بعقلي لكنني قررت الصمت وأنا أراك سعيدًا بارتباطك.

في الليل تسكنني غابة من الحنين إليك، تتشعّب في صدري، يؤلمني أنها ستبقى معك كل العمر وأنا التي أحبك سأظل وحيدة كزهرة في صحراء جدباء.

جاءت أمي تُخبرني بموعد زفافك المفاجئ كلطمة على الوجه، ظهر علي ملامح الضجر فلم تدرك معناه.. كل ما قالته:

حاولي يا ابنتي أن تجهزي لحفل الزفاف، جميع العائلة والأقارب سيذهبون.

الدمع في عيني بارز يُزينني قبل مساحيق الوجه فقد كان يلمع، ما من أحد يراني حتى يراه كوضوح الشمس، تعثرت قدمي أمام قاعة الأفراح، فشدتني أمي إلى الداخل، وعندما رأيتك تهافت قلبي يريد أن يحتضنك وسط الجميع ويعلن عن حبه لك المُتخفي، حينها فقد تذكرت الكتابة، أريد أن أوضّح على الورق هذه المعاناة بشكل سطور منمّقة، تُشعرني بالسعادة كلما هممت وقرأتها وحدي، الجميع صفّق فرحا، الحضور كان سعيدًا وكنت أنا أنظر لك لعل عينك تلتقي بعيني في لحظة وتشي تلك النظرة بمكنوني، وقد حدث.. وقع نظرك عندي ثم أشرت بيدك حتى آتي، صدمني فعلك هذا، واحمر وجهي من الخجل، تقدمت نحوكما، رمقتها بعيني، كانت جميلة، رقيقة،

وجهها مليء بحبك كما يملأ ملامحي، أمدت يدها لتُصافحني فأمسكت بيدي الباردة، قلت لها: ها هي أختي التي لم تُنجبها أمي بعد.

وقع الكلمة جعل قلبي بداخلي يرتعش، ثم سارت الرعشة مسرعة إلى أطرافي.

أختي!

ابتسمت قائلة: هو كذلك "أتمنى من الله أن يسعدكم"!

ثم عدت إلى الطاولة التي كنا نجلس عليها حينها فهمت معنى الثُقل الداخلي، كيف للمرء أن يحمل كل هذا وقدماه لم تسعفه، إلى أن مر الوقت دونك وعرفت أن الزمن قادر على أن يتحمل ثُقلي، كنت أقرأ كثيرًا لكي أنساك وأذوب حزني داخل القصص والروايات، بين شخوص وهمية حتى جاء من يتنشل روحي من الذكرى الراكدة وتزوجت أنا الأخرى، أصبحت كنسمة عطرة تعبر ذاكرتي بخفة، لا أدري ربما الخير في نسيانك.

من يقرأ؟

ظلتْ لمدة طويلة تنظر نحو النافذة بتركيزٍ شديد، ثم عادت لتتفحص الورق الذي أمامها على الطاولة ممسكة بقلم، فتكتب تارة، وتشرد بعقلها تارة أخرى، لتتساءل: "من يهمه كتاباتي ويعتني بها؟"، ولماذا أكتبُ من الأساس؟ وهل من أحد يقرأ رُوْحي وما فيها من تناقضات غريبة؟!

كانت تلك الأسئلة تجوب ذهنَها كثيرًا، وكأنها تعيش معها في الصباح والليل، فكل من حولها يعتقد أن ما تكتبه "زينة أشرف" الكاتبة المشهورة، هو جزء لا يتجزأ من حياتها الشخصية، وأن تلك المواقف التي تسردها على الورق من خلال القصص والروايات ما هي إلا أحداثًا قد مرت بها، وما من أحد يعرف الحقيقة.

فما عاشته زينة أسوأ من ما تكتبه، حتى أنها لا تجرؤ على كتابة حرف منه، فتذهب نحو مشاكل الآخرين وتكتب أروع الحكايا.

فهي من أسرة متوسطة الحال، توفي والدها عندما كانت تدرس في الجامعة، وقبل تخرجها راحت تبحث عن عمل يكفي لعيشها هي وإخواتها فلم تجد سوى العمل في منزل سيدة كبيرة مُسنّة تُريد

جليسة ترعاها وتسهر بجانبها، حتى أنها لم تقل لأحد عن ذلك، وعلى الرغم من حصولها على شهادة ليسانس الآداب ظلت تعمل عند هذه السيدة وتتقبل فكرة أنها تخدم سيدة في منزل لاحتياجها للمال.

ثم توفت أمها بعد ذلك مُتأثرة بمرض السرطان، وكانت زينة مسؤولة بشكلٍ كامل عن شقيقتها الصغرى، وشقيقها الآخر، والذي لم يكن ليستوعب كل هذه الأحداث وبقيت زينة تُجاهد من أجل بقاء الأسرة متماسكة، ولكن انجرف أخوها نحو طريقٍ آخر؛ فانضم إلى أصدقاء السوء، وتعاطى المخدرات ولم يهتم بدراسته.

أما زينة فكانت تتصارع مع الزمن وتتخبط في الأيام حتى تأخذ بعض الأموال لتنفق على البيت، ولتجعلهم في عزة وكرامة، خاصةً عندما تَنَصّل عمها الأكبر منهم، وخالها أيضًا الذي انقطعت أخباره فجأة.

أما شقيقتها فتعرفت على شاب بالجامعة استغل سذاجتها، وحاول أكثر من مرة أن يعتدي على جسدها باسم الحب ولكن شاء القدر أن تقف زينة بجانبها، وتمنع عنها الأذى، لتقتنع الفتاة بحديث زينة بأنه لا يصلح بأن يكون رجلًا.

اليُتم شعور يَنْخَرُ في القلب دون رحمة، لذلك حاولت أن تقوى على يُتمها بالحب، فعشقت ابن السيدة التي تخدمها، واقتربت منه

دون وعي منها، ثم عرفت بعد ذلك أنه أغرقها في كلام الغرام والحب لتساعده فقط ليكتب مقالاته.

فقد كان صحفيًّا يحاول إثبات ذاته، وكانت زينة بارعة في اللغة العربية، فإذا جاءت لتخدم السيدة يلتفّ حولها ويداعبها بالنظرات فتقع أسيرة وتستجيب لمطالبه، حتى أدركت بأنه ليس لها، والحب بعيد عنها كل البعد.

تزوج الشاب وقهرها القدر، إن أبغض ما في الحياة حُلم لم يتحقق!

استعادت زينة ثقتها وتركت منزل السيدة لتذهب إلى العمل داخل مكتب للأبحاث، فكان يرسل لها الجميع أعمالًا أدبية وغيرذلك للتدقيق اللغوي وصار معها المال الذي يكفيها، ووقفت إلى جانب أخيها لتعالجه من أثر المخدر الذي أنهك جسده، ولكنه يعود كل مرة حتى ترك المنزل.

اقترن بإحساس اليُتم الشعور بالوَحدة فتسمم جسدها بالحزن، وتسرب إليها اليأس، ولكنه سرعان ما تبدد بسعادة، عندما تزوجت أختها، على الرغم من أنها تعبت كثيرًا في تجهيزها حتى شعرت بأنها الأم الثانية لها.

أصبح المنزل يتسع لكل شيء حولها إلا هي، فتنطبق الجدران عليها حتى تشعر بالاختناق، ولا تجد سوى قلم وورقة تحكي لهما ما أحلّ بها، ثم تترك الورق إلى أن علمت أن الله أعطاها موهبة كبيرة هي سرد ما تشعر به، فراحت تكتب وتدوّن كل الأشياء حولها، فكتبت قصصًا ورواية، وبمساعدة أحد الأشخاص نشرت الرواية، والتي لاقت نجاحًا كبيرا، وأصبحت كاتبة معروفة حتى أحبها كاتب صديق وطلب منها الزواج ليحيا قلبها وينبض من جديد، ولكنه ذات يوم عرض عليها فكرة أن تكتب قصتها، فرفضت وعندما فكرت بذاك الأمر أكثر قرّرت كتابتها، فهي تعرف أن الجميع سيقرأ السطور، ولكن هل من بين هؤلاء من سيقرأ رُوحها بين السطور؟!

الخرساء

هكذا كان قدري منذ أن طَلَّتْ روحي على هذا العالم، وأنا أتمنى الرحيل عنه لا أريد أن أعيش هنا وأنا أحمل كل هذا الثقل بداخلي، فأنا في العشرين من عمري وما زالت ضحكتي منطفئة لا أعرف ما هو الضحك، فمنذ أن وُلِدت وأنا لا أعرف لي أبًا ولا أمًّا، أبعدتني التعاسة عنهم، هذه أنا الخرساء اليتيمة أي ثقل في الحياة هذا، لطالما أحسست أن هناك جبلًا يتوسط حنجرتى يمنع الكلام من الخروج، كنتُ لا أدرك من الحياة شيئًا غير هذا المكان الذي يُدعى ملجأ للأيتام الذين لا أهل لهم، لكنني أشعر أن لي شخصًا واحدًا في هذا العالم سيعوضني الله به.

الجميع هنا يُحبني فأنا لا أشاغب ولا يخرج صوتي ليُحدث قلقًا أو ضوضاء في المكان مثلما تفعل الفتيات اللواتي بنفس سنّي ولقد علمتُ بعدما كبرتُ في السنّ أنهم لقّبوني بسارة.

الملجأ هنا يشبه القصورالقديمة؛ يملكه رجلٌ ثريٌ، في غاية الحنان والعطف فقد كرّس نفسه لخدمة الأيتام وبالأخص الفتيات اللاتي بلا أهل، لم أره كثيرًا طوال حياتي، فيأتي من حين لآخر يرى

أحوالنا ويتفقد كل شيء على عجل ثم يغادر، ولكن أعرف المعلمة فاطمة ومديرة الملجأ ماما سنية كما يقولون لها، أصبحت المعلمة قريبة منّي للغاية ولكنها دائمًا ما تجد صعوبة في التحدث معي، فأنا أسمع قليلًا وأفهم فقط بالإشارة، أما ماما سنية لا تتحدث إليّ كثيرًا أظنها لا تريد أن تُصاب بصداعي، فتعتبرُني عددا، والفتيات الأخريات يلعبن في الملعب معًا ثم ما أن اقتربت إليهن يذهبن بعيدًا، حتى عندما كبرنا وأصبحنا في مرحلة المراهقة أصبحن يتهامسن ويتسامرن، أما أنا فلا أحد يفهمني، ولكنني أحاول فهم من حولي.

دائمًا ما أذهب نحو حديقة الملجأ وأجلس ناظرةً إلى المارة بالخارج، عندما مرّ أمامي لم أصدق عيني، أغمضتُها وفتحتها أكثر من مرة.. يا الله هل هذا حلم؟! كان يجلسُ على الرصيف يطالع جريدة، عندما انتبه لي، ظل ينظر نحوي فترةً طويلة، لم أصدق أن هناك أحدًا في هذا العالم يهتم بي وينظر إليّ، اقترب نحو الحديقة التي يطوقها الحديد، اقتربت أنا الأخرى صوبه، حدثني بصوت هادئ:

أنتِ تُقيمين هنا في الدار؟

ظل نظري عالقًا به ولم أتحدث!

كرّر السؤال مرة أخرى،

ولم أتكلم!

- لماذا لا تتكلمين؟!

حاولت أن أحرك يديّ ببعض الإشارت كي يفهم..

فأظنه فهم عندما قال بصوتٍ عالٍ وببعض الإشارات بيديه:

كيف لهذا الجمال أن يصمت؟!

ففهمت قصده وابتسمت خجلاَ.

كان هذا اليوم جميلًا فلقد رأيتُ شخصًا يتحدث معي من غير ملَل من لغة الإشارة هذه، وبعد حديث ليس بطويل اتفقنا على ميعادٍ آخر.

وفي الليل احتضنت وسادتي بشدة، وظل لدي أمل كبير في أن هناك قَبَسًا سيضيء عمري القادم، فوحدي كنت أمضي ولا أعلم هل سيأتي نور لأرى هذا الطريق أو ستنتهي خُطايَ قبل أن أراه!

جاء الموعد المتفق عليه ورأيته للمرة الثانية، تحدثنا في أكثر من أمرٍ حتى تعبت يداي ويداه.

قال لي: إلى الآن لم أعرف اسمك.

حاولت أن أخبره ولكنني فشلت، فتذكرت المعلمة فاطمة عندما علمتني كيف أكتبُ اسمي، ثم طلبت منه ورقة وقلما وكتبت له: "سارة" ثم اتفقنا على موعدٍ ثالث وكان ذاك الموعد هو قبس النور الحقيقي.

فقد أخبرني بحبه، وبأنه يُريد الزواج مني، لذا سيتحدث إلى القائمين على الدار لكي يخطفني من هنا. كانت سعادتي لا توصف، كنتُ أرقص من شدة الفرحة، شعرت للحظة أنني أريد التحدث بكلِ لغات العالم وكل أحاديث الدنيا.

ثم ذهب أسبوع وراء الآخر ولم أره ثانيةً. كنتُ أقضي كل الأوقات في الحديقة حتى أراه ولم يأتِ!

كان قلبي يحدّثني

ربما منعه شيءٌ ما

ربما حدث مكروه أو أصابه المرض

وبعد وقت طويل أدركتُ أنه لن يأتي. قلتُ لذاتي السقيمة:

يكفي.. أخذت من جرعات الحزن الكثير ولا طاقة لي على تحمل المزيد،

فهل من هدنة معك أيها الحزن.

أعطني كل ما تملك

حياتي أشبه بنقشٍ غريب داخل فنجان لم تستطع العرافات ترجمته، وفك رموزه القاسية.

كنتُ سابقًا أعشق المثالية في كل شيء، والتضحية، فقد كنتُ أنتمي لذاتي البريئة، أما الآن: ألتصق بحسابي في البنك، وسيارتي الفارهة، وملابسي الفخمة، الغالية الثمن، فقد غرقت في بحر المال، وصارت حياتي غنية بكل الأشياء، إلا من الحب الذي أفتقر إليه.

لم نكن نعرف أن الحياة جافة مع من يغدقها حبًا، وتغرقُ في النعيم من يعبس بوجهها دائمًا، فأنا وهو على عهدٍ مع الهوى قبل أن نُولد، ولكنني أعلم جيدًا أن العشقَ ثغرة خفية في أجسادنا، تتسرّب منها أنفاس الحبيب، لتحتل كياننا بالكامل حينها نصبح أضعف مما نكون، وأنا لا أريد الضعف.

كان الجميع يعرف حب خالد لي، كم هو نقي كهواء الصباح الجديد ليوم يضحك للكون، وعندما طلب الزواج منّي، لم أتردد لحظة في الموافقة: لأنه يفهمني من نظرة العين، ويستشعر ما أريد قوله.

لطالما حدثتُه عن أحوالي المُزرية مع عائلتي البائسة، فقد كنا تعساء، يُحاول أبي أن يبذلَ أكبر جهدٍ لديه ليكفي قوت يومٍ واحدٍ لستة إخوة، وأنا على رأسهم، ولم يستطع بالفعل...

لم أُكمل تعليمي، ولكني على قدر لا بأس به من الذكاء، وهذا ما يستغله أبي، فيوقفني بمكان جانب البيت لأبيع الجرائد، وبعض الحلوى لأطفال المدارس في الحي، كان خالد يستمع لكل هذا، ويخفف عنّي حدة ما أشعر به، وعندما أنتهي وأفرغ كل ما بي يقول:

"الصبر، حبيبتي ياسمين، عندما أتخرج في الجامعة سنتزوج، وتصبح حياتنا أفضل"!

كان خالد من أقرباء عائلتي، يدرس في كلية الحقوق، ولم يتخرج بعد، عندما اهتم بشأني، وحاول الدفاع عن حقوقي، وتلك هي قضيته الأولى، فهو لا يملك شيئًا، سوى أنه يحبني، وشقته التي يعيش بها في القاهرة، بحي مجاور لنا، ليصبح قريبًا من الجامعة، ومنّي، فأعشق وقت الدراسة، وأكره أيام إجازته التي يعود فيها إلى الفيوم، ليزور عائلته هناك.

ثم جاء اليوم الذي طلب فيه أن يقابل أبي ليُتمّم حبنا، أحضرت الزي كي أرتديه لأجل هذا اليوم، والحقيقة لكل يوم، فأنا لا أملك أن أشتري شيئًا جديدًا، وانتظرته عندما جاء، وأعطاني الورد الأحمر،

ثم جلس على الكنبة البالية، ولكن أبي قطع علينا تلك اللحظة بصوته الغليظ، وتدخل في الحديث ليسأله عن سبب الزيارة، وعندما عرف السبب قال أنه لا يريد أن يزوجني، لأني أساعده بالعمل، ثم أكمل حديثه بأن خالدًا لا يمتلك أي شيء ليتزوج به، وحتى الآن لم يتخرج، ولم يعمل.

شعرت بانسداد داخل شراييني بعدما قال كل هذا، واحمرّوجه خالد، ولكنه يعرف أبي جيدًا، ويعرف أن هذه طريقته في الحديث..

ثم عرفت بعد ذلك ما يجهزه أبي، فقد أتم صفقته مع (سيد عبد المولى) ذاك الرجل الذي يهابه الجميع في منطقتنا، فيقال بأنه يتاجر في كل شيء، ويمتلك مالًا؛ إذا وقف عليه يمسك السماء بيده، ولكن هذا الرجل يكبرني بعشرين عامًا أو أكثر! فكيف يفعلون بي ذلك؟!

أتى عبد المولى إلى منزلنا فظل ينظر باشمئزاز إلى البيت الذى ليس له ملامح كي يكون منزلا، فجدرانه متهالكة، وسقفه تشعر بأنه سيسقط عليك في لحظةٍ ما، أما الأثاث فعبارة عن بقايا ليس أكثر، ووسط ترحيب شديد من الوالدين، رمقني بنظرته الحادة، وأنا آتيةٌ من بعيد، مُجبرة على الجلوس معه، حاول أن يتحدث معي، ويُخبرنى أنه يهيم بي منذ أن شاهدني بالشارع أكثر من مرة، وبأنه سيصبح

خادمًا لكل أوامري، ليأخذني خارج الفقر، وهذا البيت، كي أكون أجمل مما أنا عليه الآن.

أثناء حديثه، وعروضه المغرية، تذكرت خالدًا ومضى عقلي نحوه، هو الذي لا يمتلك مثل ما يمتلك عبد المولى، لكنه فقط يمتلك قلبًا يتسع لي بحق.

على الرّغم من أنني قطعت على ذاتي عهد أن لا أترك خالدًا مهما حدث، حتى قاومت الزواج من رجلٍ آخر، إلا أنني هُزِمتُ بتلك المشاجرة مع الأيام، وقبلت الزواج، ثم حصل ما كنتُ أخشاه، أصبح قلبي مع رجل وجسدي مع آخر، ولكنني أكذب على نفسي بالراحة، وأصطنع ابتسامة مزيّفة، حتى كرهتُ روحي في نهاية المطاف، وتمنيتُ لو أموت، وتعود روحي لخالد، تشكو له، وتطلب منه السماح، فأنا أريد قلبه، أريد كل ما يملك من حب، وتضحية، وإخلاص؛ فهو إلى الآن ينتظرني دون رجوع.

رسالة عاصفة

أكتبُ لكِ وأعلم أن الشتاء قصير، عزيزتي كقصرِ لقائنا منذ عامٍ فما بداخلي لا يكفي لما يحتويه وجداني من عواصف الكلمات، إنه قلبي الممتلئ بالثلج بعد رحيلك يثور بداخلي كأمواجٍ ثارت لتوّها، حينما أُشعلُ سجائري، أتذكر ذاك اللقاء وأراكِ وسط الدخان تتراقصين أمامي حتى تتلاشى تماما، وأظل أبحث عنكِ ولم أجدكِ بعد.

كان شتاءً ممطرًا وكان الطقس عاصفًا للغاية، رياحٌ تهب على المدينة وثلج متساقط، كنتُ أجلس على ذاك المقعد الخشبي المتهالك بعض الشيء والذي كان بمظلةٍ تحمي المارة من المطر، أرتدي معطفًا أسود ثقيلًا، وأنظر للمارة المسرعين خوفًا من الرياح والمطر باهتمامٍ شديد، فهناك رجل عجوز أرهقه التجول فجلس على مقعدٍ أمامي، وهنالك سيدة جميلة تحاول أن تسرع؛ لتذهب بعيدًا عن المطر، لربما كان بيتُها قريبًا، التفاصيل هي من تجعلني أنسى أني وحيد دائما، ثم رأيتكِ من بينهم تنظرين يمينًا ويسارًا كأنكِ تبحثين عن

أحدٍ، تركت نظري عندكِ يتنعّم بكلِ تفاصيلك، شعركِ البني وبَشَرَتك البيضاء التي تشبه هذا الثلج الممتلئ به الطريق، قوامكِ الممشوق، وعينك التي بها شعاع يشبه شعاع شمس الشتاء، والأجمل الشال الأزرق الذي يطوّق عنقكِ، عندما تنبهتِ أنى أنظر لكِ توجه نظركِ للأرض، ثم رفعتِ بنظرك إليّ مرة أخرى وابتسمتِ بهدوءٍ وحذرٍ، شعرتُ أنكِ تخفين شيئًا بداخلك، تقدمت نحوكِ وقلت لكِ:

مرحبًا سيدتي. ترددتِ لحظة ثم كان الرد أنكِ بخير، ثم أتبعه شكركِ على سؤالي.. الذي بدا تطفلا، رغم ذلك شعرتُ أن ثمةَ إحساسًا يقودني إليكِ يجعلني أريد أن أعرف من أنتِ، هل أنتِ حُلمٌ أو حقيقة، سألتكِ:

لو تسمحين سيدتي، هنالك بالقرب من هذا الطريق مقهى فهل تذهبين معي لاحتساء فنجان قهوة قد تحتاجين إليه بهذا الجو البارد؟

ثم صمتُ قليلًا وأكملت حديثي بأن الطقس سيئٌ للغاية ومن المحتمل أن يظل هكذا لوقتٍ ليس بقليل.

أجبتِ مسرعة: نعم، فإنني أحتاج أن أذهب بعيدًا عن المطر الآن..

لم أتوقع أنكِ توافقين بهذه السرعة..

ولكننا بالفعل ذهبنا داخل المقهى وطلبنا القهوة ذاتها؛ سادة، من النادل..

كنتِ صامتة شاردة نحو النافذة.. سألتكِ:

ظننتك عاشقة للمطر فلماذا تهربين منه؟!

- أهرب لأنه يغمرني وأنا كرهت أن يغمرني شيء ويستولى على قلبي. من الآن لا أريد أن أتعلق بالأشياء مطلقا.
- إذن يا عزيزتي أنتِ مغرمة برجل كسر قلبك ومضى!

كنتُ شاردًا عندما تفوّهت هذه الجملة بين ثنايا عقلي، ولكنكِ قرأتِ صمتي وقتها، راحت أصابعك الرقيقة تُداعب الفنجان بخفة عندما تحدثت:

"الحياة تجعلنا أكثر صلابة، فبعد كلِ انكسارٍ قوة وبعد كل هزيمةٍ نصر"!

قلت لكِ مندهشا: يبدو أنكِ لستِ من هذة المدينة، لهجتُكِ غريبة، أنا أعرف تلك اللهجة لقد زرتُ مدنًا كثيرة وتحدثت بلغاتٍ أكثر.

- أجل، جئتُ من بعيد كي أبحث عنه هنا حتى يرى أنني لملمتُ بقاياي وشتاتي وأصبحتُ أقوى من ذي قبل.
- من هو؟ أهو حبيبكِ؟

بهدوء شديد منكِ لم يهمكِ سؤالي لذا لم تجيبي عليه..
بعد سكوت تام بيننا بدأتِ حديثًا جديدًا:

"الاغتراب عن الذات هو أسوأ اغتراب قد يمر به الإنسان".

أحسستُ أنها تقصدني أنا الغريب في تلك المدينة أيضًا مثلها وحدي، ولكنني لم أبحث عن أحد أو شيء مثلها، اعتراني شعور آخر بالحب في قلبي، كيف وهو اللقاء الأول بيننا، ترى سأراكِ مرة ثانية، أحاول فيها أن أشرح كيف للمرء أن يحب من أول لقاء.

قطعتِ حديثي الداخلي بجملة أشبه بصاعقة في ليلٍ عَتِم:
أريدُ أن أرحل الآن، ثمةَ رحلةٌ تنتظرني.
قطّبت حاجبي قليلًا ثم قلت: ولكننا لم نتحدث أكثر بعد.

نهضتِ ثم اقتربتِ مني بجرأة غريبة، أشعرتني بأنكِ لستِ أنت تلك الخجولة عند أول نظرة رأيتها بها وأنكِ تحولت إلى امرأة أخرى طاغية.

-"سأرحل عنكَ مثلما رحل عني، ولا تحاول أن تبحث عني؛ لأن الغربة موحشة والحب ما هو إلا غربة بداخل شخص آخر، اعتنى بوحدتك.

رحلت وكأنكِ طيف!

منذ عام وإلى الآن أجلس عند المقعد ذاته أبحث في وجوه العابرين عنكِ وعندما أدركت بأنني لن أراكِ ثانية، كتبتُ لكِ هذه الرسالة والتي لم تصلك فقد جعلتها لي مغلفة بحنينٍ إلى لقاءٍ ثانٍ.

نحو اللا مكان

حياتي المتبقية من الآن وإلى أن أذهب خارج الكون، ستكون ملك يدي ما من أحد يوجهها، أنا فقط من أديرها منذ أن غادرني الجميع لم أفكر في الانتحار، ولكنني فكرت في أن أزجّ بكل ما يُحيط بي من يأس من علو شاهق، فيا أيتها الرياح سيري معي لا تعبثي بحلمي الكبير أن أرحل دون عودة من هنا، أحمل الأمل.

أخذتُ بحقيبتي فجرًا دون علم أحد، وضعت كل ما أحتاجه لرحلتي بشكل عشوائي، لم أكن مدركة ماذا أفعل هل يقودني الجنون لنهايتي أو لبدايتي، يقتلني الماضي بعدة طعنات، لا أستطيع التحرك أراني أنزف في صمت الآن، ولكنني جمعت كل الطاقة لديّ لأذهب ثم استوقفني أصوات ابنتي:

"أمي لماذا ترحلين؟ أنتِ السكينة والأمل المتبقيان لدينا". ولكنني غادرت وحجبت بيدي كل هذه الأصوات.

بدأت الشمس في الوضوح رويدًا رويدًا وسط صقيع اجتاح روحي قبل المكان لعل دفء الشمس الآتي من باطن الكون يبعث معه الطمأنينة.. راحت أصوات المارة في محطة قطار القاهرة تصنع ذاك

الضجيج المؤذي للسمع، وأنا واقفة أنتظر القطار المتجه إلى الواحات حيث أبحث عن عمتي القاطنة هناك من زمن، ولكن قلبي يُحدثني أنني سأنقب عن إبرة في كوم من القشّ، ولكنني أينما تذهب روحي سأذهب معها؛ لا أستطيع أن أمكث بجانب زوجي دون عائلة تحميني منه ومن غدره؛ فقد كان يعيش على قهري وضربي حتى تكسرت أضلعي، أصبحتُ دون أمل في العيش بكرامة مع فتياتي وعندما طلبت منه الطلاق لم يوافق وقال لي:

"أنتِ خادمة لا أكثر"!

ركبتُ القطار وظلت المحطات تتوالى عليّ وأنا في ذهول، كيف تسنّى لي الهروب؟ وكيف تركتُ بناتي؟ حتما سيضربهُن إن لم يجدني. وصل القطار وهبطت إلى الواحة المتواجدة بها عمتي كما كنت دائمًا أعرف من أبي قبل وفاته، راح الذُّعر يتجول في قلبي وأنا أبحث بعيني عن أي خيط يشدني إلى بيتها، أخذت أتسكّع حاملةً الحقيبة وبعض النقود، وذكرياتٍ كثيرةً بعقلي يحملها بتحمل وصبر، نظرت حولي، رأيت الجميع يحدّق بي وعلى شفاههم ابتسامة سخرية، لا بل إنني أتخيل ذلك، في الحقيقة الحياة هي من تسخر مني، فقد أهدتني جرحًا غائرا، ومضى العمر وأنا أحمل هذا الجرح دون أن يعالجه أحد.

جلست على منضدة قديمة بإحدى الشوارع التي قادتني لها قدماي دون مقصد، كان الليل يوشك على المجيء، وأنا ما زلت لا مقصد لي، أحاول أن أتذكر حديث والدي عن تلك العمة التي لم يزرها مطلقًا فهي أخته من الأب فقط، لذلك لم يكن ليذهب لها إلا قليلا، رأسي الممتلئ بالذكريات يحاول أن يبحث عن أي طريقٍ يدلني عنها ولكن بلا جدوى.

ذهبت كي أسأل المارة عن فندق أقيم فيه حتى أعثر على بيت العمة، حتى شرح لي أحدهم كيف أذهب إلى أقرب فندق وبالفعل مضيت نحوه مسرعة خوفا من عتَمة الليل، بالغرفة حاولت جاهدة أن أغفو قليلًا ولكن كل المحاولات باءتْ بالفشل فنهضت من الفراش لأجلس مع ذكرياتي حتى مطلع الفجر. تذكرت أمي التي لم أرها في حياتي فهي ماتت عندما جاءها المخاض ووضعتني، فقد كنت دائمًا أشعر بتأنيب الضمير كلما تذكرت موتها وكيف تأثر أبي وعاش حياته لي دون ملل، حتى أنه لم يتزوج وقادني التفكير إلى زوجي عندما جاء لخطبتي.. بدا حنونًا رائعا فتزوجنا بسرعة فائقة، حاول أبي أن يسرع بالزيجة كي يَطمئن على ابنته الوحيدة قبل أن يموت وبالفعل توفي أبي بعد زفافنا بعدة أسابيع، شعرت بعدها أن زوجي يعاقبني على زواجي منه في كل يوم يضربني ولا أعرف لماذا، فهل هناك امرأة أخرى؟

أو إنه استغل وحدتي وموت عائلتي؟! في كل مرة ينتهك جسدي النحيل، أبكي حتى أنني أصبحت لا أشعر بألم الضرب لأن الألم الذي بداخلي أكبر من كل هذا.

ولكنني كنت أصبر لأجل ابنتيّ وظلت فكرة الهروب تتراقص أمامي كل يوم حتى فعلتها، وهربت من هذا القدر لأبحث عن آخر فنحن نذهب إلى الأقدار بأقدامنا.

لم أشعر بذاتي إلا عندما سمعت صوت العصافير عند النافذة، فقد نمت قليلًا وأنا أتوسّد تلك الذكريات، من أين للعصافير كل هذه الأحاديث الصباحية وأنا صامتة دون أن أتحدث بكلمة لأنني لا أجيد التعبير عن ما يدور بداخلي.

مرَّ يومٌ كامل وأنا لا أعرف ماذا أفعل.. أبحث عن عمتي أم أرجع لزوجي والفتيات، يا ترى ماذا فعل بهن.. هل ضربهن مثلما يفعل معي؟ لا.. لا أتخيل.. على الرغم من قسوته هو لم يفكر في ذلك.

الغربة التي بداخلي أشعر بها تتوغّل أكثر من غربتي تلك في مكان لا أعرفه، تذكرت اسم المنطقة فأسرعت نحو إحدى العاملين بالفندق حتى أتأكد من الاسم فقالت لي: "نعم هذه المنطقة على مقربة من هنا ولكن قد تحتاجين إلى سيارة وفي غضون نصف ساعة ستكونين هناك".

وصلت إلى القرية ذاتها حاملةً معي أشيائي واسم العمة فقط، سألت عنها ولا أحد يعرف لقب هذه العائلة، حتى وصلت في آخر المطاف إلى رجل مسنّ يحفظ أسماء العائلات عن ظهر قلب فدلني على بيتها، عندما قرعت الباب فتحت لي فتاة صغيرة ثم جاءت من وراءها عمتي، امرأة جميلة كما حكى أبي من قبل، عندما تحدثت معها تذكرَتْه وبكت فأخذتني وضمتني باشتياق، أسعدتني تلك اللحظة فقد تمنيت أن أشعر بالحنان من أحد.

مرّ أسبوعان وأنا لا أعرف ماذا فعل زوجي بغيابي.. هل يبحث عني لكي يعاقبني، قالت عمتي: "إذا جاء سأجبره أن يطلقك وتظلين هنا معي والفتيات أيضًا، لن أترككم لقسوته أبدا"... فغمرت قلبي الطمأنينة.

تعرفت بالقرية على شاب مثقّف كان يأتي يومًا بعد آخر كي يعطي دروسا في اللغة الإنجليزية لحفيدة عمتي الصغيرة، لطالما تحدثنا كثيرًا ولكنني أخفيت عنه مشكلتي، كنت أرتاح في الحديث معه كثيرا، ثم جاء ذاك اليوم واعترف بحبه أمامي؛ دق قلبي وظهر على وجهي القلق والريبة، عندما سألني: ما بكِ عزيزتي؟ حدثني عقلي أن أعترف له بحقيقة زواجي فحدثته عن كل شيء رغم خوفي من

فراقه فقد أحببته، صخب الماضي يُحدث ضوضاء بداخلي، كنت أتقن دور الصامتة بمهارة، ولكن ضجيج الذكريات يلتهم قلبي.

قال والحزن يملأ عينيه: لا عليك سأنتظرك حتى تتخلصين منه إلى الأبد، لا يهم فأنا الآخر قد سبق لي الزواج وانفصلت.

سأبذل جهدي حتى أتخلص من زوجي ومن قسوته، ولكن أخشى أن يأخذ ابنتي، حتى جاء زوجي إلى بيت عمتي فقد عرف بأنني أعيش ببيتها، حاول أن يقنعني بالعودة ولكنني رفضت، أمام إصراري على الطلاق، استجاب لطلبي وأعطاني حريتي، أطلقت جناحيّ في الفضاء الواسع أرفرف وأنشد السعادة بالسماء، ولكن ما أخشاه حدث فقد أخذ البنات معه.

كنت أشعر أن القدر سوف يمنحني السعادة كاملة ذات يوم، وبعد مضي من الوقت تزوجت وعادت الحياة تغدق بالكرم فرجعتْ ابنتاي إلى أحضاني من جديد.

في قهوة على المفرق

الحنين إليكَ يستعر ولا تهدأ ثورته الدائمة، كنتُ أتساءل عند كلِ صباحٍ هل الحب من الممكن أن نمحوَه دون أن يترك ذاك الأثر؟ هل ما زلت تتذكر المقهى الذي كنا نجلس فيه كي نتناول القهوة بنكهة الشوق معا؟ قلبي يُحدثني ولا يكف عن الثرثرة معي يقول: أين العابر بالأمس وأين تلك الطاولة التي شهدت أحاديث العشق؟ أصاب بدوار، حقًّا أترنح ثَمِلَةً من جرعات الفراق، لا أشعر بشيءٍ سوى الحنين يسري في جسدي يحرقني، أنت تشبه القدر كثيرا، أخشى ما يُخفيه ولكنني يجب أن أؤمنُ به، لذلك دائمًا ما كنت أخاف من لحظات قربك، لأنني لا أعرف بعدها هل سنكمل ذاك الوصال أم سينقطع.. وها هو انقطع.

سأنتظرك عند عتبة الغياب لربما تأتي، حملت الحب ومضيت نحو المقهى ذاته حين قال النادل وهو يقدم فنجان قهوتي الوحيد:

"لم أركِ وحدك من قبل".

وعندما رأى الحزن في عيني توقف عن الحديث وذهب.

الجو بارد بالفعل ولكن داخلي يلتهب شوقا، فالذكريات النائمة بقلبي توقظها نبضة من حنين، عندما حدثتني عن ذهابك بالخارج للعمل أحسست أنك لن تعود ياعزيزي، وعندما قلت: سأرسل لكِ كل يوم خطابًا؛ شعرت أيضًا بأنك لن ترسل شيئًا. وحقا ذهبت ولم تبعث لي برقية وداع، انقطعت أخبارك وانقطعت اللقاءات وما زال الحب يُضيء عتَمتي.

رأيتُ في آخر لقاء بريقًا بعينيك، ثم تركت لعيني دمعة تسكن أحداقي، ألست أنت من قال: شمس الحب لا تغيب مهما طال غيابنا، وها قد غبت وأنا ما زلت أنظر للشمس صباحًا بلهفة ثم ترحل لتعود لي باليوم التالي ومتى ستعود أنت مثلها؟

أرتشف القهوة وأنظر للمارة أمامي من الجهة الأخرى للمقهى، ولكن الشوق يقيد قلبي، أقول لذاتي:

"مرَّ عابرًا، ألقى التحية على قلبي ومضى، مَنَحَني ثقل الذكريات التي لايستطيع القلب تحملها".

تقول ذاتي:

"وأين أنتِ الآن؟".

أنا هنا بالمقهى أجلس هائمة في ملكوت الحب، أستعيرُ آخر نظرة من عينيه كي أستطيع أن أمضي بذاك الطريق وحدي، ربما أجده في نهايته.

انتهيت من قهوتي ومضيت أتجول بالشوارع، أنظر للمارة والشمس وأسكن ليلا بالبيت، لأعود من جديد في الصباح أرتشف الشوق على مَهَل وأقتفي أثر الذكريات الهاربة مني، فنبع الحنين بداخلي لن يجف!

سأكون لكِ يوما

وقفت صامتة أمامه، وتركت العين تحدثه بعدما همس لها:

"لا أستطيع".

قالت بريبة:

ماذا بك؟

- ربما البعد هو النهاية الأمثل لقصتنا!
- لِمَ؟ كنت بالأمس لي ومني.
- فماذا حدث إذن؟

لم يجب، فتجمدت الدمعة بعينها تتلألأ كنجمة وحيدة في سماء بدلته السوداء، ظل هو الآخر لا يتكلم فهي لا تعلم ما أحلّ به من البارحة إلى اليوم.

قال لها:

" اعذريني حبيبتي لا أستطيع".

ثم مضى وسط دهشة من الجميع الذين ينظرون..

راحت كلماته أمامهم تهزمها، تعلّق أحلامها الحمقاء خلف مجهولٍ لا تعرفه.. لماذا أتى ولماذا رحل؟

ومات بنظرها مرة وفي أعين الجميع مرة أخرى، فقد تركها وسط الحضور كالضائعة يشفقون عليها ومنهم من يشمت بها، يتحدثون بصوت منخفض، عن تلك العروس التي تركها عريسها يوم زفافهما دون سابق إنذارأو سبب محدد، فقد كانت ترتدي فستانها الأبيض الجميل، تُزينها فرحتها، تمرح وسط الجميع، ثم خذلتها الأحداث وتخلت عنها السعادة فأي ذنب اقترفت كي يتركها للرياح تعبث بها في الفضاء الفسيح.

الساعة تدق بشدة، صوتها القوي يُنذر بالفراق، عندما جاء بكامل أناقته مُبتهجًا يرتدي بدلته السوداء بوسامة يراها الجميع، ينظر للمرآة ويهندم ربطة العنق إلى أن ظهر شقيقه الأصغر من خلفه يتطلع إليه صامتا، فأدار له ظهره قائلا:

هل أنت حزين لأنني سأذهب من البيت وسينتهي الشجار الدائم بيننا؟!

اغرورقت عين أخيه بالدموع ولم يُجب..

- ما خطبك؟
- أتبكي ليلة عُرسي؟!

- كنت أود أن أخبرك من ذي قبل، ولكن...
- عن ماذا تُخبرني؟!

بعد صمتٍ طويل بينهما شحب وجه شقيقه للغاية وأخذ يتلعثم في الحديث..

لطالما أحببتها...

- من هي؟!

ابتلع ريقه بصعوبة بالغة وراح يتصبب عرقا قائلا:

هي التي ستعقد قرانك عليها الليلة، نعم هي حبيبتي أنا، فضّلت أن لا أتكلم كثيرًا عن الأمر لأنني أعلم مدى حبها لك، كلما اقتربت منها خطوة أحترق بحبكما حتى أصبحت رمادًا مُتناثرا، ولكنني لا أتخيلها معك، أتعرف لعنة المُشتاق؟! في ذاك الطريق الطويل المُسمى الفراق، لأنه لا يعرف أين نهايته.

وقف أمامه عندما انتهى من ذاك الحديث كقطعة خشب يشبه كثيرًا المنضدة التي تتوسطهما، شعر أن رأسه يغلي وقلبه فرّهاربًا من جسده، يحاول استجداء الهواء كي يستنشقه دون فائدة، تتلاشى ملامح أخيه من أمامه لا يرى سوى طيف ثم أغمض عينيه لبرهة وأزاح عن عنقه الربطة بهدوء وذهب إلى خارج المنزل مسرعًا..

ليكون الفراق قرارَه الأخير الذى لا رجعة فيه.. فهناك حب لا نستطيع المُضي فيه أكثروالغوص بأعماقه، نظل هكذا ننظر إليه من الجهة الأخرى ولم يسعنا سوى الاشتياق، نتحمل الألم وحدنا، لذلك هو فضّل الصمت والبُعد حتى لا يتعذب الجميع فالكل خاسر، ربما سيكون لها ذات يوم، ربما يرأف بهما القدر.

الذكريات المختبئة

كان الطريق طويلا نحو الخندق البعيد في معسكرنا، من كثرة المشي ساقي متعبة وتؤلمني بشدة، أحاول جاهدًا أن ألتقط أنفاسي التائهة حتى أصل بعدما أنهكنا العدو في تلك الحرب الدائرة طوال الليل، وبعد استيعابي الكامل بأنني ما زلت حيا، أصبح عقلي مثل كرة من نارٍ أحملها بكل ما أوتيت من وَهْنٍ في هذه الليالي الموحشة، لم أختر أن أكون جنديا ولكن أمي رهف من أجبرتني على ذلك حتى أحمل لواء الحرية لوطننا الثَّكِل.

كانت رهف زوجة أبي، تزوجته وقت رغد العيش بعدما تُوفيت أمي وتركتني أصارع الوحدة والأيام بدونها، ثم أنجبت منه إخوتي، في البداية كانت تُعاملني كأحد أبنائها وبعد ذلك بدأت في التجاهل التام لي، وما أن بدأت الحرب وأراد الجيش تجنيد الكثيرين، أقنعت أبي بضرورة ذهابي مع الجنود للحرب لأن أخي ما يزال صغيرا ويجب أن يبقى معه لمباشرة التجارة..

ذهبت والخوف يتملكني، فقد أحسست أنني أمضي لداخل النيران بقدمي حتى أحترق، لم أترك خلفي سوى حبيبتي علياء.. قد

كانت تشبه القمرعندما يكتمل، تحبني كثيرًا وأحببتها أيضًا فهي مثلي وحيدة واتفقنا على الزواج حالما أعود ويستقر الوطن بعض الشيء، ولكنني في قرارة ذاتي كنت أخشى أن لا أعود.

كنت أحب وطني كثيرًا عندما جاء العدو شعرت بأن الوطن يُغتصب، سمعت نحيبه مع كل قتيل وأنينه مع كل جريح، صراخه وصل للعالم أجمع ولكن أين العالم فهو أصم، وأصبح أعمى لا يرى الحقيقة.

أثناء تجوّلي بعقلي لأتفحص الذكريات، سمعتُ صوت أنينٍ خافت، فتفحصت المكان جيدًا من حولي لأجد فتاة تستند إلى شجرة عارية تمامًا من الورق، تراجعت للخلف لوهلة ثم تقدمت نحوها ببطء، عندما وجدتها متعبة للغاية ارتعبت كثيرًا وبصوت هادئ حدثتها:

هل يُمكنني مساعدتك؟!

نظرت إليّ بشيء من الريبة:

أود بعض الماء فقد أرهقني الطريق الطويل.

يا الله كم هي جميلة ولكن كيف تُشبه علياء حبيبتي إلى هذا الحد.

أعطيتها بعض الماء وبعض من الطعام الذي ادخرته بالأمس، ثم جلست بجانبها تحت تلك الشجرة لنستظل بها ولكن كيف وهي عارية، تحتاج إلى من يحميها من هجمات الطبيعة الدائمة.

قالت والخوف يملأ عينيها:

كنت مهاجرة مع عائلتي إلى حدود بلد أخرى ثم أضعنا الطريق الصحيح، وتوجهنا نحو الأعداء دون أن نعرف ثم سرعان ما قتلوا الجميع، ولكن أراد القدر أن أكون الناجية الوحيدة من تلك المذبحة فقد كنت بعيدة عنهم أثناء السير أتطلع إلى النجوم كي ترشدني، كأنني أغرق محاولة أن أتمسك بالنجوم المضيئة فهرعت أركض وسط العتَمة دون أن يراني أحد..

ثم تطلعت إليّ لتسأل:

هل تعتقد أن هذا من حسن حظي؟!

- بالتأكيد فالنجاة من الموت يعني أن الحياة تُجدد العهد معكِ.

ولكن أنا بلا عائلة.. مُتجردة وعارية مثل هذه الشجرة! ثم نظرت طويلا إليّ لتقول بدهشة:

- كيف تُشبهه إلى هذا الحد؟

- من؟

- حبيبي فقد ذهب مع الجيش منذ فترة،

ولكن عائلتي قررت الرحيل فذهبنا وهو لا يعلم. شعرت حينها أن قلبي ينشطر إلى نصفين..

شعرت بأنها تريد الحديث كي تخفف عنها حدة ما حدث لها أو لعلها تريد النسيان..

- وأنتِ أيضًا تُشبهينها..
- أهي حبيبتك أيضا؟
- نعم يا...
- نرجس..

اسمي نرجس وأنت؟

- عمار.
- جميل اسمك تفوح منه رائحة،

ولكن لا رائحة في وطننا سوى رائحة الموت والحرب.

- أعلم ذلك ولكنني لدي أمل.
- أي أمل يا عمار مع كل هذه الخرائب؟

مضى الوقت ونحن نتجاذب أطراف الحديث دون ملل عن الحب والوطن والحرب..

- الوقت مضى ماذا ستفعلين الآن؟ يجب أن أكمل السير نحو المعسكر فهو على مقربة من هنا.. أخشى أن تذهبي بعيدا يجب أن تأتي معي لنتحدث إلى القائد.
- من الممكن أن ترحل أنت، أنا سأنتظر النهار.

عندما شعرت بتحسن حالتها مضيت نحو المعكسر وافترقنا، ولكن قلبي عاتبني كثيرًا لأنني تركتها.

تقدمت خطوة ثم الأخرى، ونظرت خلفي فلم أجد نرجس ولا أعلم إلى الآن أهي حلم أم خيال أم أنها حقيقة..

رجعت إلى المعسكر وفي قلبي جلبَة مشاعر وخوف، ثم بعد عدة أيام ذهبنا إلى المدينة وعلمت من أمي رهف أن علياء غادرت مع عائلتها ليبحثوا عن وطن آخر، ثم جاءت الأخبار بأنهم قُتلوا على يد العدو..

يبدو أن روح علياء أتت لتربّت على كتفي وتذهب، فقد تذكرت عندما قالت كم أشبه حبيبها.. ولكن كل ما أعرفه أنها في جعبة ذكرياتي مختبئة!

سيدة الحرف

لم أكن أعلم وقتها أن النجوم المتعلقة بأحضان السماء بتلك الليلة، سينطفئ وميض بريقها من دموعي يوما، فقد أحببتك وأحببت عينيكَ التي تشبه تلك النجوم ولطالما أعتقد أنها تُرشدني في عالمي المظلم، عندما أتيت لتبدد وحشتي وغربتي في ذاتي.

أنتَ ذاك الكاتب المبتدئ الذي أفرط في استخدام أحرف اهتمامه بي يومًا، وجعلني أعلّق أحلامي البريئة على مشجب الانتظار، كنت أقرأ كلماتك وكأنك اختزلت بين الجُمل الصغيرة هذه حبي ولكنني بعد ذلك استيقظت على حقيقة مرة، وهي أنك اختزلت في باطن كلماتك جرحي العميق..

كنت فتاة في ربيع عمرها، أزدهر من اسمي وأتفتح كأنني وردة الياسمين، فأنا ياسمين ذات الرائحة العطرة، عندما التقيتك ونحن على مشارف التخرج، وأنت انتهيت من دراستك قبل عام وتخرجت في نفس كليتي، شعرت حينها أنك تكبرني بعقلك أعوامًا كثيرة، وشعرتُ

من عينيك أن ثمة قدرًا سيجمعني بك وثمة حكاية فريدة من نوعها بين قصص الحب.

مروقت وأنا أعرفك، وأنت تهتم بي أكثر فأكثر عن كل يوم، تحاول أن تفهمني وأحاول أن أفهمك، وجدتُ بك أعظم ما تريده أي امرأة.. العقل والاحترام والتواضع، أي رجل أنت؟! لم يحدث قط أن يتوسل قلبي إليّ حتى أتوغل بكَ أكثر، وما زاد سعادتي أنك تكتب بفلسفة في الحياة لم أرَ لها مثيلا، تنغمر كتابتك الصغيرة في الكثير من الأحاسيس والعقلانية والتفكر في آن واحد.

تعلقتُ بك حتى أنني انتظرتك أن تتكلم أن تقولَ: أحبك. ولكنك لم تقُل شيئًا وأنا أنتظر، أذكر في كل مرة تهاتفني.. كان قلبي قبل صوتي يتحدث دائمًا ولكنك لم تسمعه قط. وعندما تأكد حدسي أنك لا تعرف أين أنا منك، أتحبني أم لا؟ فضّلت الصمت، أحسست بأنني لا أريد التحدث، انتابتني نوبات وجعٍ عند كل رحيل عنك وعندما أعود إليك أنسى أنك من يجرحني في كل مرة بصمته فتارة تقربني وتارة أخرى وبلا رحمة تبعدني أميالًا.

كنت في سبات من أمر حبك.. بين كل هجر وآخر أعد موائد انتظاري والتي لا تخلو من وجبة ألمي الدسمة، الجميع أصبح متعجبًا من أمر الفتاة الجميلة التي تنتظر ذلك الرجل التارك إياها للمجهول فيجرّدها من كل شيء ويضعها في طريق الانتظار تائهة، ولكنني لم أر لحظة أن الحب عيب، وأن الانتظار فجيعة، بل رأيتُ أن الحب إخلاصٌ، على أمل أن يأتي يومٌ تغمرني بالعطف.

إلا أنني استيقظت من سبات حبك على كلماتك الاخيرة لي:

"أرجو أن تقدري موقفي، أنا لم أشعر بكِ يومًا، أنتِ لك طريق وأنا طريق آخر، أنا على موعد مع أحلامي أن أصبح كاتبًا وتُنشر لي أعمالًا على الورق، عزيزتي فلا وقت للحب"!

إن كنت أنتَ على موعد مع أحلامك فأنا على موعد مع الحزن لم أخلفه، ولكن شاء القدر أن يلهمني الصبر بعد وقت طويل من تجرعِ ألم غربتك عني، كنت أتلصّص أخبارك كسارقة للحظات كي أسدَّ جوع الشوق.

وأراد القدر أيضًا أن أكتب مثلك ولكنني كتبت من وحي جرحي، عندما كنت بداخل أعماقي أتجول وأبحث عنك، وما أروع ما نكتبه بحبر الدموع، أصبحتُ أنا الأخرى أرتدي ثوب الإبداع، أتلوّن مع الحرف والكلمة حتى عرفني الجميع.

وفي خِضم ما حدث لي بعدك وانقطاع الصلة بيننا، لم أتذكرك، الحياة أذابتك بداخلي وبداخل كتابتي التي أرْدَتْك أرضًا.

وبعد أن جرى الوقت بقلمه خطًا طويلا من السنين، لم أكن أتوقع أنك تتذكرني، لم أصدق عيني عندما قرأت رسالتك:

"كيف حالك؟".

بكل ما أوتيت من قوة.. قلتُ لكَ:

"في أحسن حال".

وعادت صداقتنا، غريبة هي الحياة تقلب الموازين فقد أحببتكَ بالأمس وكنت تُناديني بصديقتك، وتشعر بالحنين إليّ الآن وأنا ألقبك بصديقي ليس إلا.

لن تصبح أبدا حبيبي للمرة الثانية، فمن يموت نهائيًا لا يحيا، ولن أغفر لك عمرًا ضاع ولا حبًا اغتلْتَه بزعم الحُلم، فقد أصبح حُلمك هو حُلمي، فأنت تحلُم أن تكون كاتبا لك أكثر من رواية و أنا أحلم أيضًا بذلك يا عزيزي.

وعندما قررتِ رأيتك لست بخائفة من قلبي اليوم، أعطيتك دعوة لحضور حفلة توقيع روايتي، جئت تحمل الحنين معك، عندما رأيتني أضحك فخرا بذاتي لأنني أنا من حققت حلمك وأصبح نسياني على ورق موثّق.

هاربة إلى المنفى

الغربةُ ليست أن تترك الوطن فحسب، ولكنها أن تترك نصف روحك هناك. هكذا قالت نهلة لصديقتها المُقربة بالعمل عندما شردت لبعض الوقت كيف تسنى لها العمل في موسكو بعدما حاولت كثيرًا أن تضرب بنصائح أهلها عرض الحائط لتحظى بفرصة ذهبية للسفر خارج البلاد حتى تحقق بعضًا من أحلامها المنسية في أدراج الماضى السقِم برفض عائلتها دومًا لتلك الفكرة، ولكنهم الآن لا يستطيعون الرفض أو القبول في ظل الديون المتراكمة لهم، فقط عليهم الاستسلام للأمر الواقع والذي يتراءى لهم في عتمة قضاياهم.

لقد أرسلت لكم المبلغ المطلوب لهذا الشهر والبقية تأتي.

ملّت نهلة من هذه العبارة التي تكتبها لمدة سنتين وهي وحيدة في غربتها الموحشة، حيث تتكئ على نفسها لتمضي الأيام المرعبة هذه، لطالما تمنت السفر ولكنها الآن تريد أن تعود لوطنها ولا تعرف كيف، كانت الليالي تمر واحدة تلو الأخرى، دون أن يحدث شيء جديد يهزّ أركان حياتها بصخب بعدما تركت هاني في مصر، يحاول أن يبحث عن فرصة عمل دون فائدة، فلا أحد يُريد أن يعمل عنده.

انهارت قواه.. فشيء ما يجثم على صدره كلما تذكر ما فعلته به ويقسم أن ينتقم منها شر الانتقام، كان يتفحص ملامحها في تلك الصورة المتبقية له من عمر تلك الأيام ثم يتحسر على جمالها الذي ضاع من يده، هي التي ذهبت دون أن تخبره بذلك وتركته غارقًا في ديونه مثل أهلها أيضا..

رنّ الهاتف فترك هاني صورتها على الطاولة بجانب المنفضة التي هلكت من كثرة أعقاب السجائر المنطفئة ليرد على من اقتحم خلوته بها..

كان الرقم دوليا يحتوي على أرقام كثيرة فشعر أنها هي فسرعان ما رد

ثم صمت دون أن يَنْبِسَ بكلمة..

حتى أتى صوتها من الطرف الآخر ناعمًا ولطيفًا..

- حسبتك نسيتني.

تنهد بكل ما فيه من ضيق:

- أين أنتِ؟
- في موسكو ألا تعرف ذلك؟ أعتقد أنهم أخبروك.
- أهلك؟
- نعم.

- لا، أخبرتني صديقتك بمصر، لكن أين أنتِ بالتحديد؟
- لِمَ.. سوف تأتي؟
- لا فقط أريد أن أراكِ لو مرة واحدة.
- أما أنا فلا أريد أن أراك رغم ما بي من شوق.

حاول أن يتكلم آخر كلمة فلم تسمعها.. ثم أغلق الهاتف فجأةً بحنق شديد.

أمسك برأسه برهة من الوقت وهو يشدّ خصلات شعره بعنف شديد، حتى كاد أن يقتلعها من جذورها.

حمقاء هي.. تركتني في تلك الورطة ورحلت..

تعلم أنه سببٌ رئيسي في هدم شركة عائلتها التي كانت من أكبر شركات المقاولات بمصر، فمنذ أن تعرف عليها وأحبته شارك العائلة بالعمل، ثم سرعان ما بدأت الشركة في الخسارة حتى أعلنت العائلة إفلاسها تماما كما الحال معه، لم يكن يحبها بقدر ما استغلها ليحصل على أموالٍ كثيرة من وراء هذا الحب.

لكن الحب الذي بداخل نهلة لا يعترف بكل هذا، فمن القائل، أن كلَّ حب نور، يبدد ظلام الروح.

ثمةَ حب، يصبح غيمة كثيفة تحجب رؤيتنا عن كل شيء، منذ أن سمعت صوته لم تعد قادرة على تحمل المزيد من بعد المسافة فحاولت أن تهاتفه مرة أخرى، حتى وجدته يغلق الهاتف في وجهها، أرسلت أكثر من رسالة فاستجاب، هو يعلم جيدا أنّها ستبحث عنه ثانية.

- لِمَ أغلقت الهاتف؟
- لأنك تريدين ذلك.
- لم أقل لك أغلقه.
- عن ماذا تبحثين إذن؟
- عنك، أنت!
- ولكنك رحلتِ.
- أرجوك يا هاني، أنا أحاول أن أنساك ولكنني فشلت.
- إذن أين أنتِ؟

أعطته عنوان سكنها بالتحديد، وأيضا عرف منها مكان مكتب الترجمة الذي تعمل به في موسكو، وعندما قال لها: لم يعد بحوزتي مالٌ، أرسلت له النقود التي يحتاجها للسفر..

عندما لوحت له نهلة بيدها لم يكن يراها إلى أن انتبه وسط الزحام الكثيف بالمطار..

نظرت إليه بكامل شغفها ثم تقدمت نحوه وقالت له بصوت خافت:

أتعلم أنني اشتقتُ إليك!

قال مازحا:

أما أنا فلم أشعر بذاك الشعور!

فنهرته قائلة:

إذن لماذا أتيت؟

أخذت تُقنع ذاتها أن لا سبيل لها سوى هذا الحب.

أحيانا يعمينا الحب عن الحقيقة، دون أن نشعرَ، وضعت قلبها على موقدِ الحب حتى احترق بالكامل.

لم تكن تعلم أنه يحاول استغلالها مرة أخرى باسم الحب، فأثناء وجوده معها في موسكو حاول أن يقنعها بضرورة عمل مشروع جديد على أن تعطيه كافة الأموال التي معها، وهو سوف يقوم بجميع الإجراءات اللازمة لذلك وبأنه ليس واجبا عليها مساعدة عائلتها فهم يتحملون مسؤولية الفشل..

فكرت في الأمر كثيرًا فهي ادخرت مالا لا بأس به يُساعدهما على إنشاء مكتب صغير للترجمة بمصر، ثم يتزوجان بعد ذلك. قالت له: سأعود معك إلى مصر ونبدأ العمل وبالفعل ذهبا لهناك. عادت إلى موطنها فقد حلمت كثيرًا بالعودة ولكن القدر لم يعطها وقتًا للسعادة. فقد سرق هاني كل أموالها ورحل بعدما أقنعها بسحبها من البنك. لتكون معه فيسهل عليه مُباشرة العمل وعندما علمت بذلك أدركت جيدا أنه لم يحبها وأنه آتى إليها ليُكمل خطته في نهب روحها قبل نقودها.. لم تستطع الرجوع لعائلتها فغادرت إلى منفاها مرة أخرى هاربة من كل شيء.

الروح العائدة

أضع بجانبي كوبًا من الشاي الساخن للغاية في عتمة الليل القاهر بعدما ارتشفت منه رشفة ألهبت لساني، سرت السخونة في كافة جسدي ثم تذكرت كم كان حبك حارًا كهذا الفعل، كم كنت أشعر بتلك السخونة التي ازدادت في أوردتي، ثم هدأ كل هذا من رجفة غيابك، فارتشفت حنيني إليك على مهل، راق لي كثيرًا الوجع برحيلك وما من أحد يعشق عذابات البعد سوى امرأة عاشقة حقا، أنظر للعابرين بحياتي كأنهم غرباء سيذهبون قريبًا فأنا لا أريد أن يمكث أحد غيرك بجانبي لأنني أترقب عودتك، سأنتظرك عند عتبة الغياب لربما تأتي.

شعرت بأنني أريد النوم بشدة، أغلقت كل المصابيح وبدأت في الاستعداد للنوم كي أذهب إلى عالم الأحلام البعيد عن واقعي تماما، بُعد كالذي بين السماء والأرض، حاولت أن أسترخي ليرتاح جسدي، ثم ذهبت بالفعل، كنا على موعد بعد ذاك اللقاء الأخير اتفقنا أن نلتقي، لم يكن الموت ليفرقنا، قد كنتَ أقرب إليّ من أنفاسي، ما من

أحد يعرف أنك تأتي في أحلامي كل مساء نمضي سويا فقد احتفظت بالسر لنفسي.

لطالما رقصنا فوق أهداب القمر، وجلسنا نجاور النجوم ونحاور بعضنا، ثم اتفقنا على أن نتقابل اليوم وسط الحدائق الرائعة حيث الورود والطبيعة، كنت تعلم أنني أعشق اللون الأخضر، وسط كل هذا سمعت صوتًا ينادي باسمي انتزعني منك ومن الحُلم، قلتُ لك: سأعود إليهم.. انتظرني نحن يجب أن نتقابل مرة أخرى لأن الحنين يفتك بي إلى ما لا نهاية..

فتحت عيني لأرى من المُتحدث ثم وضحت الصورة.. إنها أمي بجانبي تبكي:

"هل أنتِ بخير، حبيبتي؟ سمعتك تتحدثين وأنتِ نائمة؟ ولماذا أغلقتِ الأنوار كلها قبل النوم؟".

- أمي، مهلا..

حقا أنا تكلمت وأنا نائمة كنت معه في الحلم إنه عاد إليّ بالفعل، وتحدثنا كثيرًا ولكنني لم أخبركم بذلك لأنني أخشى أن أتناول الأدوية مرة أخرى..

- حبيبتي، أعلم أنكِ كنت تحبين زوجك كثيرا، ولكنني أخشى أن تعود لكِ الهلاوس مرة أخرى.. كم استغرق وقت علاجك

النفسي، كنتِ تتحدثين مع ذاتك في اليقظة. قال الطبيب: إن حالتكِ النفسية سيئة للغاية بعدما توفي إثر نوبة قلبية فجأة ولم يعرف الأطباء سببها..

- ولكنني أخبرت الطبيب أنه جاء وتكلمنا قال لي كثيرا:

يجب أن نلتقي خارج حدود الزمن، حبيبتي، ثم التقينا في الحلم يا أمي، نعم لقد رأيته في اليقظة والآن أجده بالحلم.

- لِمَ لم تُصدقوني؟
- حبيبتي من الواضح أنه يجب علينا زيارة الطبيب ثانيةً.

خرجت أمي من الغرفة وتركتني مع أحلامي، كنتُ في غاية السعادة لأنني رأيتك، حاولت أن أنام مرة أخرى ولكن عيني أبتْ ذلك، فاقتنيت حبكَ بقلبي، ريثما تعود..

ثم عاد عقلي يرفض فكرة الموت، روحك تُحيط بي في كل مكان فإذا كان جسدك غادر بالفعل، فروحك لن تغادر ستظل بجواري لذلك أتحدث للجميع أنكَ جئت وهم يقولون أنني أصبت بمرض نفسي، ولا يعلمون أن روحك تأتي بالفعل في يقظتي وحلمي، يا الله هل هي حقيقة أو أنني في الخيال وحدي أنعم بك!

أتت الليلة التالية والنوم لم يأت.. بالتأكيد أنت تنتظرني خارج الزمن كما قلت، إن أجمل ما في هذا الرحيل أنه بلا حقائب وعقبات..

نظرت من نافذة غرفتي ورأيت السماء، يزفها القدر للكون ويُزينها بالنجوم كما يفعل كل ليلة، المسافة التي تفصلني عن تلك النجمة البعيدة بالسماء، هي ذاتها تفصلني عنكَ أو أبعد.

استسلم جسدي للنوم أخيرًا، رأيتني أرتدي ثوبًا أبيض ورأيتك تقف عند نهرٍ بدا رائقًا للغاية، ركضتُ نحوك ثم عانقتني بشدة، بعدها أمسكت بيدي وذهبنا نحو اللا مكان واللا زمان ففي الخيال وحده نستطيع جمع من لا يلتقيان.

الفهرس

ليلة قتل جميلة..٧

مشاقّة الحب ٢١

من يقرأ؟ ٢٩

الخرساء..٣٣

أعطني كل ما تملك.....................................٣٧

رسالة عاصفة ٤١

نحو اللا مكان ٤٧

في قهوة على المفرق ٥٣

سأكون لكِ يوما ٥٧

الذكريات المختبئة.. ٦١

سيدة الحرف ٦٧

هاربة إلى المنفى ٧١

الروح العائدة ٧٧

رسالتنا :

نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

Gmail arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook facebook.com/arabiclibrary2017